جدلية الإنسانية والحيوانية في الرواية العربية: مقاربة إيكولوجية

د. نورة بنت سعيد القحطاني
أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية
كلية الآداب- جامعة الملك سعود
المملكة العربية السعودية

الملخص:

حظيت الرواية العربية بكثير من الدراسات التي تناولتها بالنقد والتحليل، ولكن لا توجد إلا دراسات محدودة جدا تناولت الرواية العربية من منظور النقد البيئي وليس هناك اهتمام عميق بدراسة واسعة لروايات عربية من خلال تحليل علاقة الإنسان بالبيئة وبالكائنات الأخرى –الحيوان تحديدًا؛ لذا تركز الدراسة هنا على نماذج مختلقة من الروايات العربية من منظور النقد البيئي. وقراءة الروايات من هذه الزاوية يوفر فرصًا جديدة ليس فقط لمعرفة مركزية الآخر / الحيوان في الرواية العربية، ولكن لاكتشاف كيف يمكن أن تؤثر كتابة حياة الحيوانات على طبيعة النص السردي نفسه وآليات التعبير فيه. كما يبحث كيف ينمي السرد انفتاحًا خاصًا على تبادل الأدوار بين الإنسان والحيوان، ويطرح قضية تعامل الإنسان معه كأليف أو كوحش من ناحية. وكيف تحدث عنه النص بطريقة تكشف ماهية هذه العلاقة، وتزعزع الافتراضات حول طبيعة العنف والضعف، وتعمق إحساسنا بالطبيعة المشتركة أو حتى القرابة والصداقة معهم من ناحية أخرى.

وتكمن أهمية هذا البحث في أنه يوظف نظريات النقد البيئي للكشف عن دور الروايات العربية في تشكيل الوعي البيئي في أواخر القرنين العشرين والواحد والعشرين. ويستكشف أيضا كيف تتحدى تمثيلات العلاقة بين الإنسان والحيوان الطبيعة الخيالية للسلوك البشري من خلال تحليل الدور المركزي للإنسان والحيوان في مجموعة من الروايات العربية، وهذا يتطلب تحليل النصوص من منظور النقد البيئي والبحث في العلاقات بين البشر والبيئة غير البشرية. ويمكن القول: إن الأدب الذي استطاع أن يُحدِث تغيُّرات سياسية، هو نفسه قادر على إحداث تغيرات بيئية إيجابيَّة من خلال رفع الوعي البيئي في أوساط الناس.

الكلمات المفتاحية:

(النقد البيئي، الرواية العربية، البيئة، الحيوان، الطبيعة).

Abstract:

This study focuses on the animal imagery and the representation of the human-animal relationship in Arabic novels. It reads these novels from an ecocritical viewpoint and examines how the narrative expresses the conflict between animals' lives and human behaviour. Among the many elements of nature, the role of animals has been particularly stressed and raised. The novels have shown how human violence and destruction affect the environment while animals are sometimes kinder and more merciful than human.

Keywords:

(Ecocriticism, nature, animals, zoocriticism, Arabic novels).

مقدمة البحث:

النقد البيئي (Ecocriticism) يهتم بدراسة علاقة الإنسان بالبيئة والمكان؛ وأثر الأرض والطبيعة في الكتابات الأدبية؛ أي استكشاف معاني البيئة في النصوص الأدبية؛ وهي مقاربة تُخضِع سيادةَ التصورات المتمركزة بشريًّا عن البيئة للدرس والتحليل؛ على اعتبار أن مصدر إلهام الأدباء هو انخراطهم في المخطط الكوني الذي تشاركهم فيه جميع الكائنات الحيوانية والطبيعية.

وقد بدأ الاهتمام بالبيئة في الدراسات الأدبيَّة بشكل واسعٍ مع ظهور مدرسة النقد البيئيّ في أواخر الثمانينيات وبداية التسعينيَّات من القرن العشرين، والتي من روَّادها "تشيرل جلوت فلتي" و"سكوت سلوفك"، عندما أسَّسا رابطة دراسة الأدب والبيئة، وبعدها بفترة قصيرة قامت "تشيرل جلوت فلتي"، وبالتعاون مع "هارولد فروم" بتحرير كتاب بعنوان "النقد البيئي، القارئ"، يتألَّف من مجموعة من المقالات عن الأدب والبيئة.

وعُرف النقد البيئي بأنه دراسة للثقافة والمنتجات الثقافية (الأعمال الفنية، الكتابات، النظريات العلمية، إلخ) التي ترتبط بطريقة ما بعلاقة الإنسان بالعالم الطبيعي، وقد جاء استجابة للحاجة إلى فهم تلك العلاقة في عصر تدمير البيئة. حيث إن العلماء يرون أن الأزمات البيئية، إلى حد كبير، هي نتيجة لانفصال البشرية عن العالم الطبيعي، ليس فقط عن طريق تطور التكنولوجيا، ولكن أيضاً عن طريق التخصيص الذي يفشل في إدراك الترابط بين الأشياء.

ومن وجهة نظر الأكاديميا، فإن النقد البيئي هو استجابة للتخصص الأكاديمي الذي خرج عن نطاقه المحدود إلى الدراسات البينية. حيث جاءت فكرة تعدد التخصصات لتدعم ظهور النقد البيئي كـ "خيمة كبيرة" تشجع شمولية وجهات النظر وترابطها. وبالتالي، يمكن أن تشمل المناهج النقدية البيئية مناهج نظرية، وتاريخية، وتربوية، وتحليلية، ونفسية، وبلاغية، وما إلى ذلك. ورغم أن

بعض الباحثين ينتقد النقد البيئي لصعوبة ضبطه بسبب هذه الشمولية، فإن تلك النظرة الشاملة هي التي تميزه عن المناهج النقدية المحدود(١).

وجاءت نظريات ما بعد البنيوية لتدعم الاتجاهات الجديدة في الأدب والنقد الأدبي ودراسات اللغة في انفتاح تخصص ما على بعض التخصصات الأخرى لإثراء تحليل النصوص وتعزيز حضورها في عصر العولمة. ولذا فإن النقد البيئي لم يبتكر نظرية نقدية جديدة، وإنما اعتمد على مجموعة متنوعة من النظريات، مثل النسوية، والماركسية، وما بعد البنيوية والتحليل النفسي والتاريخي، لإلقاء الضوء على كيفية انعكاس تفاعلات الإنسان مع الطبيعة في الأدب(٢).

وتعرّف (Cheryll Glotfelty) النقد البيئي بأنه دراسة العلاقة بين الأدب والبيئة المادية، تماما كما يفحص النقد النسوي اللغة والأدب من منظور يراعي (الجندر)٣، وكما يركز النقد الماركسي على أنماط الاقتصاد والطبقة الاجتماعية في قراءته للنصوص، فإن النقد البيئي يركز على البيئة في الدراسات الأدبية.

فالناقد هنا حسب (Glotfelty) يطرح أسئلة مثل: كيف كان تمثيل الطبيعة في هذه السونيته؟ ما هو الدور الذي تلعبه البيئة المادية في حبكة هذه الرواية؟ هل القيم المعبر عنها في هذه المسرحية متوافقة مع السياسات البيئية؟ وكيف تؤثر استعاراتنا للطبيعة في طريقة تعاملنا معها؟ وبأي طريقة تتسرب الأزمة البيئية إلى الأدب المعاصر والثقافة الشعبية؟ وما هو التأثر والتأثير الممكن بين الدراسات الأدبية والخطاب البيئي في التخصصات ذات الصلة كالتاريخ، والفلسفة، وعلم النفس، وتاريخ الفن، والأخلاق؟

وبهذا تشترك معظم الأعمال البيئية في دافع مشترك يتصل برفع الوعي بعواقب أفعال الإنسان التي تدمر أنظمة الحياة الأساسية على كوكب الأرض. ويثير هذا الوعي رغبة صادقة في المساهمة في حفظ البيئة، وتشجيع المتلقين على التفكير بجدية في علاقة البشر بالطبيعة، وبالمعضلات الأخلاقية والجمالية التي تطرحها النصوص الأدبية حول القيم ذات الآثار البيئية العميقة.

ويؤكد المؤرخ (Donald Worster) إن لعلماء العلوم الإنسانية دور مهم يلعبونه، فنحن نواجه أزمة عالمية اليوم، ليس بسبب كيفية عمل النظم البيئية ولكن بسبب كيفية عمل أنظمتنا الأخلاقية. ولنتجاوز الأزمة علينا ألا نكتفي بفهم حجم تأثيرنا على الطبيعة فقط، إنما نعمل على فهم تلك الأنظمة الأخلاقية وتطبيقها لإصلاح البيئة. ولا يستطيع المؤرخون، جنبا إلى جنب مع علماء الأدب والأنثروبولوجيا والفلاسفة، إجراء الإصلاح بالطبع، لكن يمكنهم المساعدة في هذا الفهم٤، ولا يمكن أن ترتبط هذه الرؤية بالهيمنة بل بالقبول والاعتراف بمركزية البيئة في عالمنا ودراساتنا لطبيعة الأدب، والطبيعة في الأدب تجعل من الممكن للنقاد البيئيين العمل بروح الالتزام بالتطبيق العملي لرفع الوعي البيئي.

وسنركز هنا على مصطلح (Ecofiction) وهي الأعمال التي تتناول العلاقة بين البيئات الطبيعية والمجتمعات البشرية التي تسكن داخلها. وظهر هذا المصطلح بعد فترة وجيزة من سيطرة البيئة كنموذج علمي شعبي وموقف ثقافي واسع في الستينيات والسبعينيات. وتركز على موضوعات مثل التأثيرات البشرية على البيئة، مثل تغير المناخ، والأدب الموجه نحو الطبيعة، مثل القصص عن النباتات والحيوانات وتصوير علاقة الإنسان بهم.

ويصف (Dwyer) الخيال البيئي بأنه له جذور أدبية عميقة ومظلة متنامية من الفروع٥. الخيال العلمي هو أحد هذه الأسباب لأنه كان تقليديًا يتعلق بالعلوم الفعلية أو المتخيلة وتأثيرها على البيئة والمجتمع. صحيح أن الخيال البيئي جزء من جذوره في الخيال العلمي، ولكنه وجد أيضًا في أنواع أخرى كثيرة من الأدب المبكر، بما في ذلك الواقعية السحرية والرعوية والأساطير وحكايات الحيوانات والكلاسيكية. ولا يمكننا أن نتجاهل القصص الخيالية البارزة التي ألهمت وحركت الخيال، بما في ذلك كتاب الطبيعة والشعراء مثل راشيل كارسون ومارغريت فولر وجون موير وهنري ديفيد ووردزورث أحد رواد الرومانسية.

كما تشير الدراسات إلى أن أول رواية حول المناخ والاحتباس الحراري نُشرت على الأرجح في عام ١٩٧٧م. غير أن الاهتمام بهذا الموضوع في العقد أو العقدين الأخيرين زاد بشكل ملحوظ، وارتفع عدد المؤلفين والمخرجين الذين يعالجون هذا القلق. وأصبح السؤال الذي ينبغي الاهتمام به: كيف شكلت الروايات الأدبية والسينمائية الوعي البيئي في أواخر القرنين العشرين والواحد والعشرين؟

والإجابة تتطلب تحليل النصوص من منظور النقد البيئي والبحث في العلاقات بين البشر والبيئة غير البشرية. ويمكن القول: إن الأدب الذي استطاع أن يُحدِث تغيُّرات سياسية، هو نفسه قادر على إحداث تغيرات بيئية إيجابيَّة من خلال رفع الوعي البيئي في أوساط الناس.

وبعد هذا الطرح النظري المختصر، فقد اخترتُ تطبيق هذا المنظور على بعض النصوص الروائية العربية، حيث نستكشف كيف تتحدى تمثيلات العلاقة بين الإنسان والحيوان الطبيعة الخيالية للسلوك البشري من خلال تحليل الدور المركزي للحيوانات في مجموعة من الروايات العربية المعاصرة.

وقراءة الروايات من هذه الزاوية قد يوفر فرصًا جديدة ليس فقط لمعرفة مركزية الحيوان في الرواية العربية المعاصرة، ولكن لاكتشاف كيف يمكن أن تؤثر كتابة حياة الحيوانات على طبيعة النص السردي نفسه وآليات التعبير فيه. كما يبحث كيف ينمي السرد انفتاحًا خاصًا على تبادل الأدوار بين الإنسان والحيوان، ويطرح قضية تعامل الإنسان معه كأليف أو كوحش من ناحية. وكيف تحدث عنه النص بطريقة تكشف ماهية هذه العلاقة، وتزعزع الافتراضات حول طبيعة العنف والضعف، وتعمق إحساسنا بالطبيعة المشتركة أو حتى القرابة والصداقة معهم من ناحية أخرى.

ومن أكثر الروايات العربية التي صورت تبادل الأدوار بين الإنسان والحيوان روايات إبراهيم الكوني التي كرست جل اهتمامها على وصف البيئة الصحراوية وخصوصية الحياة فيها، وتصوير العلاقة بين الإنسان والبيئة في فضاء سردي

يناقش بعمق سؤال الوجود الإنساني. وجاءت روايتاه (التبر) و(نزيف الحجر) لتصور الأزمة الإنسانية الوجودية بالتماهي مع عزلة الصحراء التي لم يجد فيها إلا الحيوان صديقًا ورفيقًا تارة، وعدوًا شرسًا تارة أخرى.

فالشخصيات في رواية (نزيف الحجر)(٦) انقسمت بين شخصيات بشرية وحيوانية، كان الإنسان فيها ظالما للإنسان باستدعائه لشخصية (قابيل) الذي قتل بطل الرواية (أسوف) كما قُتل قبله (هابيل)، كما كان أيضًا ظالما للحيوان الذي عانى من شر هذا الإنسان ووحشيته. فنشاهد شخصية (الغزال) الذي ضحى بحياته من أجل الإنسان (قابيل) الذي أنقذه طفلًا، وأنقذ قطيع الغزلان من وحشية الإنسان/الصياد، ومع ذلك قتله (قابيل) وكان ضحية جحود الإنسان ونكرانه.

وهناك حيوان (الودّان) الأسطوري الذي صورته الرواية بصفات خارقة، وقوة عجيبة يظهر لنا تارة منقذًا لخصمه وصديقًا للإنسان، وتارة أخرى سببًا لهلاكه وموته في مشاهد من الصراع بين هاجسي البقاء والفناء، وفي ثنائية عميقة بين الخير والشر، والوفاء والجحود، والإنسانية والتوحش في بيئة تجمع هذا الصراع وتعاني من آثاره السلبية المدمرة للطبيعة والحياة الفطرية.

ويصور أيضًا الكاتب الكويتي سعود السنعوسي علاقة الإنسان بالحيوان في رواية (ناقة صالحة)(٧) التي ترسم بعمق عالم الإبل وطباعها القريبة إلى طباع الإنسان. جاء في مقدمة الرواية:

"للإبل طباع صعبة مثل حياتنا، وفية إن أحبت، ولكنها مزاجية، وتضمر الإساءة في قلبها ولا تسامح من يسيء إليها، وصالح خير من يعرف ذلك.. فلأحد أسلافنا قصة متوارثة، حين أساء لبعيره صعب المراس، أثقل عليه وآذاه في مأكله ومشربه بعدما شاخ.. تربص له البعير في أحد أسفاره معه وحيدا بعيدا مقطوعا عن القبيلة، وطارده حتى عضه في كتفه وبرك فوقه يهرسه، وعاد البعير إلى مضارب القبيلة بعد أيام، ودماء صاحبه على وبره الأبيض، في صدره وبين

قائمتيه الأماميتين، نحن من ذرية ذاك الرجل، ومنه اتخذنا اسم فرع القبيلة، "المهروس"، وعليه صرت صالحة آل مهروس".

فتصور الرواية كيف تشبه الناقة الإنسان في بعض طباعها، فهي تحب شريكها وتغار عليه، ولا تنسى الإساءة وتنتقم من خصمها ولو بعد حين، وتحزن وتنوح على ولدها إن مات أو مرض أو أخذ منها، ولها ذاكرة تحفظ الأماكن والوجوه وكل ما يمر عليها، وهي تصبرعلى قسوة الصحراء، التي كيفتها لتحمل العيش فيها، مثلها مثل إنسان الصحراء الذي يتشارك مع جمله وناقته تفاصيل الحياة والعزلة في بيئة تصور طريقة تعامله مع الحيوان تارة بلطف ليثبت انسانيته، وتارة أخرى يظهر قسوة ووحشية تجعل الحيوان في بعض المواقف أكثر رحمة وإنسانية من البشر.

وجاءت رواية (فخاخ الرائحة) للكاتب يوسف المحيميد، والتي ترجمت إلى اللغتين الفرنسية والإنجليزية، تطالعنا بسؤال: إلى أين؟ ؛ فيحضر المكان منذ البداية، كجحيم مرفوض من بطل الرواية (طراد) ابن الصحراء التي اختارها الكاتب لترمز إلى تاريخ ثقافي وديني لأبناء المنطقة، كان قاطع طريق أو كما يسميه الكاتب باللهجة المحلية (الحنشل)، وهو فارس شجاع لا يهاب شيئًا حتى الذئاب لم تفكر أن تهاجمه فتظل تحرسه حتى ينتهي من طعامه ليغادر تاركًا لها وليمة دسمة ، كانت الصحراء مصدر رزقه فصادقها بكل ما فيها من كائنات حية ورمل وأشجار طلح وعوشز وسدر ، وفجأة تحولت هذه الصحراء إلى مصدر خوف وقلق بعد أن قبض عليه رجال قافلة الحج ليأمر أميرها بدفنه وصاحبه في الرمل ما عدا رأسيهما، وهنا تبدأ المأساة ويتوحش المكان من حوله ليصف لنا لحظات الموت القاسية التي عاشها وهو يرى الذئب يلتهم وجه صديقه (نهار) وكيف تفنن في قتله ببطء شديد حتى اختطف أذنه فينجو من الموت ، ولكن بأذن مقطوعة سببت له التعاسة بقية حياته، فلم يعد قادرًا على العيش في الصحراء بعد أن "صارت أذنه المقطوفة أضحوكة القبائل وسخريتهم"(٨).

ولنتأمل وصفه لهذا المشهد:

"الذيب جاء. همس نهار برعب واضح وبصوت متقطع، كان الذئب على بعد خطوات قليلة، وهو يمشي كأعمى تقوده الرائحة، ولحظة أن رآهما، أو رأى رأسيهما النابتين من قسوة الرمل انسحب بجذعه قليلاً إلى الوراء، وخفض برأسه نحو الأرض كما لو كان سيختبئ عن الطريدة. راقبهما لوهلة قبل أن يمشي نحوهما بطريقة تشبه الزحف. تجمّد برهة أمام نهار، مصوّبًا نظره تجاه عينيه، محدّقًا فيه بدقة وشراسة، لم يكن يغمض ولا يغفل عن فريسته ولو لثوان. تحرّك نحوه فجأة، وخبطه بقائمته الأمامية، فصرخ نهار بشدة، وهو يزيح وجهه عنه، اندفع الذئب بأسنانه المشرعة كالموت ونهشه. زعق نهار وهو يحاول أن يحرر وجهه من شراسة الذئب. زعق حتى ارتبك الرمل، وبكى الطلح البعيد، وأغمض الشفلّح وهو ينكمش على أغصانه بحياء، وحاول الرمل أن يخفف قبضته على جسديهما، لكن الوقت لم يعد كافيًا ليتحررا من جوع ذئب البراري"(٩).

هنا تظهر لنا العلاقة المعقدة بين الطبيعة والثقافة من جهة، وبين الإنسان والحيوان/الذئب من جهة أخرى، حيث يظهر الإنسان هو (المفترس، والفريسة) في وقت واحد، الذئاب التي تلتهم البشر ويخافها الناس، هي في الوقت نفسه تعد في الثقافة رمزا للبطولة والقوة يبجله الناس. وهي معادلة تشكل محورا رئيسا لعلاقة الإنسان مع الذئب بالذات، كواقع ورمز.

هذا الذئب الذي كان بالأمس يصاحب البطل/طراد الذي تخشاه الذئاب:

"كم مشى هذا الذئب مصاحبًا طراد في غزواته وعراكه وسهره قرب نار الغضا، وهو يشوي الطرائد بعد أن وقعت بين يديه القويتين. كان يسهر قربه، وكان يمضي بعد أن يطوح نهار بقطعة من جسد الطريدة نحوه. يلتقطها الذئب بأسنانه ويهرول بعيدا غائبة حتى الصباح التالي"(١٠).

هنا نلاحظ تبادل الأدوار فرجال القافلة هم الوحوش (الذئاب البشرية) الذين قدموا طراد وصديقه نهارا –بعد تقييدهم بالحبال ودفنهم في الرمال– فريسة سهلة

للذئاب التي تحترم القطيع ولا تعتدي على أفراده، بينما الإنسان هو من ينتهك حرية إنسان آخر كوحش بعيد عن الإنسانية:

"بقيت كل الليل أتحلحل بجسمي داخل الرمل، أهز بمعصمي وأنا أحاول أن أتخلص من حبل قيدني به الكلاب، كلاب الحج الذاهبون إلى مكة للدعاء، وهم لا يملكون الشهامة وكرم العفو والتسامح. آه.. ليتهم قتلونا بسيوفهم، أو ليتهم أطلقوا علينا النار وريحونا من العذاب. قال أمير القافلة: ما نريد نوسخ أيدينا بدمهم واحنا بنية الحج!! أي حج، وأنت قتلتنا ببطء وبعذاب ما له مثيل"(١١).

تلك هي وحشية الإنسان الحيوانية كما يصفها لنا العجوز (توفيق) الذي كان طفلاً صغيرًا لم يتجاوز الثامنة من عمره عندما اختطفه تجار الرقيق (الجلابة) من حضن أمه في قريته وسط السودان، حيث هرب مع مجموعة من الأطفال إلى الشمال وظلوا يعانون من الجوع والبرد حتى خدعتهم رائحة الشحمة المشوية فوقعوا في فخ الجلابة الذين حملوهم عبر البحر وألبسوهم لباس الإحرام حتى يظن أنهم قادمون للحج فلا ينكشف أمر تجارتهم بالرقيق، تلك الرحلة التي تعرض فيها الطفل (حسن) أو(توفيق) كما سيغير اسمه لاحقًا للاعتداء الجنسي من الأرتيري المتوحش الذي استغل ضعف الصغير ووحدته، لتكون بداية الإهانة لإنسان بائس وصل ميناء جدة ليركب شاحنة مع شخص لا يعرف من هو أدخله إلى منزله، وبعد أيام أحضر له رجلاً قام بخصائه بعد أن غرز في أنفه قطنة المخدر ليصحو بعد أن فقد رجولته إلى الأبد.

(توفيق) هو وجه آخر لـ (طراد) فظروفهما متقاربة حيث تعرض كلاهما لفقد جزء منه جعله يشعر بعقدة نقص تطارده وتنغص عليه حياته، كذلك فقد كل منهما لموطنه الأصلي والعيش في المكان البديل (الرياض) الذي هو جحيم بالنسبة لهما، يعيشان مستوى اجتماعيا واحدًا تسحقهم فيه نار العنصرية والقبلية البغيضة وسلطة القوة التي قتلت أحلامهما، وخدعتهما الرائحة التي أوقعت (توفيق) في فخ تجار الرقيق.

إنها لغة الغاب التي تقرر البقاء للأقوى وما تنطوي عليه من مشاعر الإحباط الاجتماعي الناشئ عن مناخ القمع والسلطة والقهر المؤسس على قوانين عنصرية ولا إنسانية ظالمة.

يعود المحيميد أيضا إلى مثل هذه المقارنة بين الإنسان والحيوان في روايته الأخرى (نزهة الدلفين) لكن الحيوان/الدلفين هنا حيوان مبارك.. فالدلفين مثال التفاؤل والاستبشار.. الدلفين حيوان محبوب ويساعد الناس. ومن ثم تدل القصة على: العاطفي، والإنساني، والذاتي. ففي المستوى العاطفي، الدلفين يحيل إلى اليد السابحة بحثا عن الأخرى، والأيدي تتحول إلى دلافين تقفز وتفرح وتكون وسيلة للحب والبركة، إنه حوار العشق كما تترجمه الأيدي، وبالتالي فالدلفين هنا رمز للحب:

"لو لم يكن يخيط الحياة من الماء، لما كشف لي بعد ثلاثين عاما، أنني أحمل دلفينين صغيرين دون أن أشعر بثقلهما.."([١٢]).

"كانت يده كالدلفين الأحدب الخجول.."([١٣])

"تراخت أصابعها القرنفلية الساخنة، وانسحبت واحدا واحدا، الإبهام أولا، ثم السبابة والوسطى حتى آخر زعنفة من الدلالفين.."([١٤])

ويتمثل الإنساني هنا في السفر برفقة الدلفين بحثا عن الحب، ويبرز الذاتي في العلاقة الحميمة بين البطل والدلفين، علاقة الدفء والحب الذي يبدد عزلته. لكن تلك اليد المحبة الناعمة ذاتها في مقارنة مع يد الإنسان تتحول إلى يد تقتل. أبو أحمد قتل ابنه الصغير بضربة واحدة، لأنه مدّ يده اليسرى لتلتقط حبّات الأرز الهندي الساخن:

"فانهالت على ظهره قبضة أبي الضخمة... بكينا جميعا، ولم نعرف لِمَ قتل أبي شقيقي الأصغر، هل لأنه غامر بالأكل قبل أن يبدأ هو، وذلك جناية في حق أبوّته وسلطته، أم لأنه أكل باليد اليسرى يد إبليس"([١٥]).

تلك المقارنة التي تكشف وحشية الإنسان وظلمه، تمثل نقيضا للإنسانية التي يجب أن يكون عليها الإنسان.

وإذا انتقلنا لمثال آخر، نجد محمد حسن علوان في رواية (القندس) يمنح الحيوان/ القندس دورا رئيسا في السرد حيث يحاول الراوي ترميم ذاكرته بعد أن اختار الهجرة بعيدا إلى مدينة بورتلاند –التي تتخذ القندس شعارا لها– يروي قصصا مجزأة مستعينا بالقندس الذي رافقه في رحلاته لصيد السمك على ضفاف النهر. واختار القندس كما يقول: "الحيوان النهري الذي يبني السدود في عرض النهر لحماية عائلته". فيربط بين سلوك القندس وأخلاقه وبين عائلة البطل التي تسكن الرياض. كان البطل مندهشا من مكانة هذا الحيوان الذي يحتل مساحة كبيرة من الإعلانات وذاكرة الناس وتقام باسمه المهرجانات في بورتلاند، وبما أن "غالب" جاء لهذه المدينة للبحث عن ذاته لم يجد أمامه سوى هذا القندس، كي يعبر عن ذاته من خلال ذوات الآخرين. فراح غالب يتأمل هذا القندس ويحيل كل صفاته الحيوانية على عائلته، فحولهم جميعاً لقنادس وراح يتأملهم ويحلل كل تصرفاتهم من خلال القندس الذي ظهر له بكل عائلته على ضفاف النهر: " تأملت سنيّه البارزتين اللتين اكتستا لوناً برتقالياً شاحباً من فرط ما قضم من لحاء البلوط والصفصاف، فذكرني لوهلة بما كانت عليه أسنان أختي نورة..... أما ردفه السمين فذكرني بأختي بدرية.... وعندما رفع إلى عينيه الكلّتين محاولا أن يقرأ ملامحي ونواياي بدا مثل أمي... انتزع التمرة من يدي كما ينتزع ابي ثمار الحياة انتزاعاً... قبض عليها بيد شحيحة ذكرتني بيد أخي سلمان عندما تقبض على المال.."(١٦).

وتصف الرواية هذا الحيوان بالألفة والشراسة معا: ف "القنادس تتصرف بألفة أحيانا لكنها تظل شرسة في الغالب" عبارة ذات مضمون تحمل تناقضا في السلوك. يتماهى البطل مع القندس وعائلتة التي جل همها بناء مسكنها باحتراف ونظام والحرص على حمايته، بينما البشر يهدمون بيوتهم وعلاقاتهم العائلية الهشة، حيث يضع علوان عينه الروائية على مشاكل العائلات العربية

والمرأة المتسلطة، والخيانات وتناقضات السلوك والمفاهيم العربية للأسرة. ففي حين يُخلص القندس لعائلته، يهجر الإنسان عائلته ويقطع علاقته معهم.

وفي رواية (مدائن الأرجوان) للكاتب نبيل سليمان تبرز وحشية الإنسان كصانع للحروب ومدمر للحياة والبيئة في مدن عربية مختلفة. فنشاهد الدمار والسقوط والموت، وانتشار الدموية يسيطر على كل شيء في الرواية للدلالة على وحشية الإنسان والصراعات السائدة. يفتتح السرد بمشهد الدم على الإسفلت بلون الأرجوان، ويختتم بمشهد انفجار قوي تتطاير فيه أشلاء البشر بلون الأرجوان أيضا. تسرد الرواية تاريخ الصراع الطائفي الذي تأجج في سوريا بين الحكومة وجماعة الإخوان المسلمين في ثمانينيات القرن الماضي، حيث يظهر الراوي رافضا للقمع وأساليب التخويف لإسكات الناس.

ويمتد هذا التشويه لمدن أخرى دمرتها الحرب والصراعات الدموية وهجّرت أهلها مثل حلب وحماة واللاذقية: "هل باتت اللاذقية غير آمنة؟"(١٧)، ليجيب بعدها: "قنابل تدك دكا فجر المدينة التي لم تعد آمنة"(١٨). وبحسرة يقرر الراوي تحول المدينة الآمنة إلى خراب مثل غيرها من مدن سورية "خربت اللاذقية، مثلها مثل حماة ومثل حلب"(١٩).

وفي رواية (ليل العالم) لنبيل سليمان أيضًا نشاهد الشخصيات بلا إنسانية، فالشخص لم يعد يعرف صديقه من عدوه في ظل اختلاط السياسة بالدين والتطرف، ولم يعد الإنسان يميز مَن يحارب مَن، ومن يدافع عن مَن. فوضى الحرب التي أفقدت الجميع الانتماء لجنس البشر وحولتهم إلى وحوش بلا قلوب، وغيرت الأب على ابنه والصديق على صديقه والعاشق ومعشوقته. فنرى والد إسلام ينضم لداعش ويصف ابنته بالكافرة لأنها رفضت الزواج من أحد قيادات الجماعة "أختك الكافرة مرغت رأسي بوحلها. في سري قلت له: بنتك الكافرة"(٢٠). وهذا (منيب) بطل الرواية الذي فرّ والده من الرقة هربا من عادات الثأر، وظل

منيب بعيدا حتى عاد إليها مدرسا. يمثل جيلا عانى من ظلم الإنسان ووحشيته التي أدت بكثيرين إلى السجن والتعذيب. هنا يواجه الإنسان غربة أخرى في مدينته التي تبدل كل شيء فيها حتى صديقه صار غريبا بعد انضمامه للمتطرفين: "أولهم من كان صديق عمرك: جابر الخليل، الأستاذ أم الشيخ، بمَ كنت ستخاطبه لولا أنه اكتفى برد السلام، وأشاح عنك؟ فجأة صحا منيب على أنه وأبو لقمان وحيدان. وكان أول ما تنبه له أن سواد لحية أبو لقمان ما عاد نقياً، وأن لعينيه بريقاً مختلفاً"(٢١). وحين كان يسأل: مَنْ أنت؟ يجيب: "أنا قد لا أعرف من أكون، أو من سأكون..."(٢٢). عاش خائفا هاربا بين الحلم واليقظة حتى وصل إلى الجنون. وكأن فوضى الحرب والصراعات ليست إلا جنون يؤدي إلى الجنون. تلك حكاية الحرب التي خلقها الإنسان لن تنتهي حيث تبدو كسلسلة من الصراع المستمر والعنف الذي يولد عنفا آخر "كلما ازداد المسلحون وحشية، ازدادوا هم وحشية. مباراة في الوحشية، هذا ما نحن فيه، ...وحوش تتصارع على صدورنا وبنا. وقد نكون في أول الطريق."(٢٣). فهي حرب لا هوية لها، ولا هدف، لا نهاية لها وليس فيها طرف منتصر بل الجميع مهزوم والثمن البيئة والإنسان الذي ما عاد إنسانًا: "هذه الحرب ليس فيها غالب يا منيب. كل سوري في هذه الحرب مغلوب"(٢٤).

وهكذا، تحفل هذه النماذج الروائية كما رأينا برؤى إيكولوجية متناسقة مع رؤى مكانية زمانية تخص أنسنة التوحد البيئي، وكأن البشر والمخلوقات غير العاقلة يواجهون ذات الهموم وذات الأحداث في تبادل للأدوار يحول الإنسان إلى وحش متجرد من القيم والإنسانية، بينما يأتي الحيوان في هذه الروايات أحيانًا لطيفًا ورحيمًا أكثر من الإنسان.

الإحالات:

[1] -Thomas Dean. 1994. "What is Eco-Criticism?". Proceedings of the Western Literature Association Meeting Salt Lake City, Utah-6 October.

[2] - Stephanie Sarver. (6 October 1994). "What is Eco-Criticism?". Proceedings of the Western Literature Association Meeting Salt Lake City, Utah-6 October.

[3] - Cheryll Glotfelty and Harold Fromm. 2009. The Ecocriticism Reader: Landmarks in Literary Ecology. Ed. Athens: U of Georgia.

[4] - Donald Worster. 1993. The Wealth of Nature: Environmental History and the Ecological Imagination. Oxford University Press. p27.

[5] - Jim Dwyer. 2010. Where the Wild Books Are: A Field Guide to Ecofiction. University of Nevada Press.

[٦] – إبراهيم الكوني. ٢٠١٣. نزيف الحجر. بيروت: دار التنوير.

[٧] – سعود السنعوسي. ٢٠١٩. ناقة صالحة. بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون.

[٨] – يوسف المحيميد. ٢٠٠٣. فخاخ الرائحة. بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ص١١٧.

[٩] – المصدر السابق، ص ١١٣.

[١٠] – السابق، ص ١١٢.

[١١] نفسه، ص ١١٦.

[١٢] – يوسف المحيميد. ٢٠٠٦. نزهة الدلفين. بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ص١٣.

[١٣] – المصدر السابق، ص١٧.

[١٤] – السابق، ص ٢٥.

[١٥] – نفسه، ص ١٠٢.

[١٦] – محمد حسن علوان. ٢٠١١. القندس. بيروت: دار الساقي، ص٥.

١٧– نبيل سليمان، مدائن الأرجوان، (كتاب دبي الثقافية، ٩٤، مارس٢٠١٣)، ص١٦.

[١٨] – المصدر السابق، ص ١٨.

[١٩] – نفسه، ص ٢٠.

٢٠– نبيل سليمان، ليل العالم، (كتاب دبي الثقافية، ١٤١، يناير ٢٠١٦) ص ٤٦.

[٢١] – المصدر السابق، ص ٥٦.

[٢٢] – نفسه، ص ٢١٠.

[٢٣] – نفسه، ص ٧١.

[٢٤] – نبيل سليمان، ليل العالم، ص ٢١٩.

المراجع:

١. الأنباري، محمد علي حسن، علم البيئة وأداة التنسيق بين الاختصاصات المتعددة،٢٠١١ .

٢. بوفلاقة، محمد سيف الإسلام. قضايا نقدية معاصرة، ط١، المكتب العربي للمعارف,٢٠١٧ .

٣. السلطاني، إيمان مطر وآخرون. 2019. نسق النسويّة البيئيّة في رواية حديقة حياة للطفية الدليمي. Route Educational & Social Science Journal Volume 6(2) ; January.

٤. العبيدي، عبد الحميد محمد جواد. ٢٠٢٠. محاولة في فهم تقاطعات الخطاب البيئي مع مسار نقد الحداثة .عمران للعلوم الاجتماعية، مج. ٨، ع. ٣١، ص. ١١٥-١٣٧.

5. Buell, Lawrence.1996. The Environmental Imagination: Thoreau, Nature Writing, and the Formation of American Culture. USA: Harvard UP.

6. Catrin Gersdorf and Sylvia Mayer eds. 2006. Nature, Culture and Literature, Volume3: Nature in Literary and Cultural Studies: Transalantic Conversations on Ecocriticism. Amsterdam and New York: Editions Rodopi.

7. DeLoughrey, E., DeLoughrey, E. M., & Handley, G. B. (Eds.). 2011. Postcolonial ecologies: Literatures of the environment. OUP USA.

8. Garrard, Greg. 2011. Ecocriticism: The New Critical Idiom. Routledge, 2nd edition.

9. Handley, G. B., & DeLoughrey, E. M. 2011. Postcolonial Ecologies: Literatures of the Environment. Oxford

University Press.

10. Huggan, G. and Tiffin, H., 2015. Postcolonial ecocriticism: Literature, animals, environment. Routledge.
11. Karl, Kroeber. 1994. Ecological Literary Criticism, Romantic Imagining and the Biology of Mind. Columbia University Press.
12. Quigley, P., & Slovic, S. (Eds.). 2018. Ecocritical Aesthetics: Language, Beauty, and the Environment. Indiana University Press
13. Zhang, J., Liu, L. R., Shi, X. C., Wang, H., & Huang, G. 2017. Environmental Information in Modern Fiction and Ecocriticism. Journal of Environmental Informatics, 30 (1), 41–52.